«الأخ الكبير» يراقبنا بأكثر مما كان فى «1984»!

أحسنت «المصرى اليوم» عندما نشرت ملفاً خاصاً حول رواية الكاتب الإنجليزى جورج أورويل المعنونة (1984) فى عددها الصادر يوم 3 ديسمبر الجارى، بعد الجدل الواسع الذى أُثير حولها فى مصر، ومازال. فهذه رواية مذهلة من حيث قدرة كاتبها على تصور سلوك الحكومات التسلطية والشمولية حتى اليوم، ولفترة طويلة قادمة، بعد 65 عاماً على إصدارها عام 1949.

فعندما اختار أورويل عام 1984 لتخيل الحصار المفروض على وعى الناس، لم يقصد أكثر من تاريخ افتراضى، ورأى أن ربع قرن يمكن أن يكون مناسباً. وهو لم يكتب رواية فقط، بل نشر وعياً بأهمية الوعى الذى يكتسبه الناس بصعوبة عبر تجارب معظمها مؤلم، خاصة حين يكون الحصار الذى يستهدف طمس وعيهم وتجهيلهم مُحكماً، وعندما تكون الدعاية التى ترمى إلى تخويفهم لتسهيل هذا الطمس قوية ومؤثرة.

فالعلاقة بين الوعى والحرية أكثر من وثيقة. ولذلك يرتبط تعبيد الطريق الصعب إلى الحرية باكتساب الوعى وترسيخه. ولذلك ربما يكون هذا الطريق هو الوحيد الذى لا يمكن للإنسان أن يجد نهاية له. وكثيراً ما يبدو أن الوعى عاد، وأننا وصلنا لنهاية الطريق قبل أن نكتشف أننا مازلنا فى بدايته. وليست حالتنا بعد ثورة 25 يناير إلا مثالاً على ذلك. فكم من مرة بدا فيها لبعضنا أن الوعى قد عاد، كما حدث حين أصدر توفيق الحكيم كتابه «عودة الوعى» فى منتصف السبعينيات. فالوعى لا يعود بمجرد

التقدم خطوة إلى الأمام، لأن وعورة الطريق يمكن أن تعيدنا مثلها أو أكثر إلى الخلف.

ولسنا فى مصر بدعاً فى ذلك. فالحال أنه فى كل مرة يسترد الناس شيئاً من وعيهم العام إنما يتقدمون خطوة فى طريق الحرية. ولكن هذه الخطوة نفسها تخلق عقبات فى مواجهتها أيضاً. وهذا هو ما أدركه معظم دعاة الحرية منذ أن بدأت شمسها تبزغ فى أوروبا قبل نحو أربعة قرون. فقد عرفوا أن طريق الحرية لا ينتهى، ليس فقط لارتباطها الوثيق بتحول البشر من مجرد كائنات حية تأكل وتشرب وتنام إلى كائنات إنسانية تعقل وتفكر وتختار، ولكن أيضاً لأن العقبات التى تعترض من يسيرون فى هذا الطريق لن تزول.

فكلما تمكن البشر من الحصول على قدر من الحرية لتحقيق إنسانيتهم، ازدادت شراسة من تُهدد هذه الحرية سلطاتهم ومصالحهم ومزاياهم. خذ مثلا الأفق الواسع الذى فتح أمام الحرية عبر اختراع شبكة الويب العالمية عام 1989، والذى يتعرض الآن لهجمات تهدف إلى تضييقه ومحاصرته. ولكن الأكيد أنه صار متأكداً من ذلك الآن، ولذلك أصدر العالم البريطانى تيم بيرنزر بيانا قبل أسابيع فى ذكرى مرور ربع قرن على اختراع هذه الشبكة، يدعو فيه إلى الدفاع عنها. ونبَّه الناس فى العالم إلى أن حرية «الإنترنت» ليست ترفاً بل ضرورة للحصول على حكم رشيد ونمو اقتصادى، كما لتوسيع نطاق المعرفة وتقدم العلم.

وهذه دعوة متأخرة جاءت بعد أن وصلت تكنولوجيا محاصرة «الإنترنت» ومراقبة أخص خصوصيات مستخدمى أدواتها فى مصر وبلاد كثيرة إلى مرحلة تؤكد مرة أخرى بُعد نظر جورج أورويل عندما كتب (1984) ليُذكّر بأن إصرار السلطة «الأخ الكبير» على مراقبة الناس سيزداد. وقد ثبت

بالفعل أن مهمة «الأخ الكبير» هذه ليست صعبة مادام فى إمكانه طمس وعى الناس وتسطيحه والسيطرة على عقولهم وبيع الوهم لهم وتحويل التاريخ إلى لوح ممسوح يُعاد نقشه وفق ما يرغب فيه.

فليس عليه إلا أن يمعن فى استغلال أى خطر لتضخيم خوف الناس، أو حتى خلقه إذا لم يوجد، ليعيشوا فى حالة فزع تدفع معظمهم إلى الترحيب بكل ما يفعله تحت شعار مواجهة هذا الخطر، بما فى ذلك مراقبتهم فى كل مكان بدعوى حمايتهم وتوفير الأمن لهم.

وما أن يتعوّد الناس على الشعور بأن كل صوت مسموع وكل حركة مرصودة، حتى يكفوا عن التفكير فى حقوقهم، معتقدين أنهم يقدمونها قرباناً لمن يحميهم ويدرأ الخطر الذى يهدد حياتهم. كما يصبحون مستعدين لأن يدخلوا الأقفاص، ويطلبوا إحكام غلقها عليهم خوفاً من «الذئب» الذى يرهبهم. وعندئذ يبدو أن الأمر استقر للسلطة الطاغية، فيطمئن «الأخ الكبير» ولسان حاله يقول للناس إنكم لن تشعروا بالاطمئنان إلا لوجودى معكم، وأن خوفكم من «الذئب» سيصرفكم عن التفكير فى حريتكم. ولكن الوعى، الذى يتشكل ببطء وعبر مسار متعرج ملىء بالعوائق التى تهدد بطمسه المرة تلو الأخرى، يظل هو السبيل إلى حرية تنالها الشعوب حين تستحقها.